الفُنون والصناعات الإسلامية

تعريف

الفن الإسلامي ويسمّى أيضاً بفنّ الإسلام، وهو ذلك الإنتاج الفنيّ الذي بدأ إثر الهجرة النبويّة في سنة 622 ميلادي، وحتى حلول القرن التاسع عشر في المناطق الممتدة من إسبانيا غربا وصولاً إلى الهند شرقا حيث تقيم فيها الفئات المسلمة. هو الفنُّ الذي يرسم صورة الوجود من زاوية التّصور الإسلاميّ، والفنّ الإسلاميّ ليس بالضّرورة أن يتحدّث عن الإسلام بل يُعبّر فيه الفنان تعبيراً جميلاً عن الكون والحياة والإنسان، ويُؤمن هذا الفنّ بوحدانية الله وعظمته باعتباره مركز الكون، والسّبب الأساسيّ لوجود الفنّ الإسلاميّ هو إظهار الجمال بجميع تفاصيله من خطوطٍ وزخارفَ وكتابة للآيات القُرآنيّة بخُطوطٍ مُميّزة.

جاء الإسلام إلى بلاد شهدت حضارات سابقة على مر العصور، فأخذ منها وأعطى، وتكونت بمجيئه حضارة جديدة عُرفت بالحضارة الإسلامية التي تعددت فيها أنواع الفن الإسلامي ، وحيثما وصل الإسلام، وصلت الحضارة الإسلامية بأساسها الفكري والنظري، التي كانت موحدة وتعددت إبداعاتها وتنوعت أشكالها، وكان الفن صيغة الحضارة الأولى، واختلاف أنواع الفن الإسلامي هو الصيغة الحضارية الإبداعية التي تنتسب إلى عقيدة الإسلام فكرًا و تطبيقًا، وتجلت كتابة أو ممارسة، واستمرت في النمو دون أن تخرج عن أساسها العقائدي وفلسفتها الواسعة التي لم تصل فلسفة أخرى إلى حدود اتساعها وانتشارها. عمل المستشرقون على دراسة أنواع الفن الإسلامي، وأطلقوا عليه أسماء مختلفة ، كمصطلح الفن الشرقي، أو الفن العربي، وكذلك الفن المُحَمَّدي، إلا أنّ تسمية الفن الإسلامي كانت الأكثر قبولا للدلالة على الفن الذي انتشر في جميع الدول الإسلامية، وكان موحدًا لجميع فنون الشعوب المختلفة جغرافيا في الشكل والأسلوب و المضمون، إلا أن هناك فروقًا ظلّت مميزة فيما بينها بحسب الأقاليم و العصور، وبحسب التقاليد التاريخية لكل أمة من الأمم التي دخلت الإسلام.

- أسس الفن الإسلامي:

- تعتبر عقيدة التوحيد أساساً يقوم عليه الفن الإسلامي ،كما تتخذ من التصوّرات الشاملة المتعلقة بالإنسان والكون والحياة ،وتدحض الوثنيات والخرافات والأوهام.
- يقوم الفن الإسلامي على مجال التحسينات في طبيعته،وهو ذلك الميدان الذي يأتي بعد كل من الضروريات والحاجات. تكتمل الصفة الفنية في الفنون الإسلامية عند صنعها من أجل الجمال،ويصبح الفن فقيراً لمعناه ووظيفته حيث يفتقر للصفة الجماليّة لذاته.
- يعتمد الفنّ الإسلامي على إظهار الأحاسيس غير المرئية،ونقل ما هو مرئي منها. كراهية تصوير الكائنات الحية،إذ يعتبر ذلك غير جائز في الإسلام. تسخير الطبيعة وعناصرها،وإعادة صياغتها،وتركيبها لتحاكي الفنّ الإسلامي بمختلف أشكاله.
- يعكس الفن الإسلامي قيمة الإسلام الثقافية بشكل مباشر،لكنه يظهر أيضًا وجهة النظر الإسلامية الفريدة للحياة وكل الأشياء الروحية ، بالنسبة للمسلمين،الله هو التركيز الأكبر في حياتهم،لذلك مع هذه المعتقدات يؤمن المسلمون بقوة بالتوازن والانسجام،لأن كل شيء يتم إنشاؤه وتخطيطه من قبل الله،لذلك طور الفن الإسلامي طابعًا فريدًا من أنماط هندسية وأرابيسك ونباتية وكتابية تعكس جوانب توازنها.

1. مصادر الفن الإسلامي

خرج العرب من صحرائهم وليس عندهم من مقومات الحياة الإجتماعية، إلا عناصر بسيطة، وانتصروا بقلتهم وبداوتهم على تلك الأمم العظيمة العريقة في القدم، وقد آثروا أن يبدأوا حضارتهم الجديدة من حيث انتهى السابقون عليهم،وثبتوا أركان النظم التي كانت سائدة بين الأمم التي أخضعوها، ما دامت لا تتعارض مع المثل العُليا للإسلام، يقول فيليب حتي في كتابه (تاريخ العرب) " فأبناء الصحراء قد ورثوا الحضارات القديمة وما فيها من تقاليد طويلة، ترجع على أيام اليونان والرومان، والإيرانيين والفراعنة والبابليين والآشوريين ، ولله ما كان أشد فهمهم، إن أولئك العرب المسلمين بما فطروا عليه من رغبة شديدة في العلم، بدأوا بفضل تعاونهم مع رعاياهم يهضمون ويكيفون وينبشون تراثهم العقلي والفني". فعندما ارتاح الفنانون من أهل الذمة إلى سماحة الإسلام ، قام الفن الإسلامي على أسس من الفن الساساني في العراق وإيران، وعلى أسس من الفن البيزنطي في مصر والشام وبلاد المغرب، كما عاون الدين الإسلامي بما تضمنه من نظم وتوجيهات على نضوج هذه الحضارة، وسمو ذلك الفن، فكانت هذه هي الأسس الكبرى التي استمد منها الفن الإسلامي أصوله.

- خصائصُ الفنِّ الإسلاميّ:

يعكس الفن الإسلامي قيمة الإسلام الثقافية بشكل مباشر، لكنه يظهر أيضًا وجهة النظر الإسلامية الفريدة للحياة وكل الأشياء الروحية، بالنسبة للمسلمين، الله هو التركيز الأكبر في حياتهم، لذلك مع هذه المعتقدات يؤمن المسلمون بقوة بالتوازن والانسجام، لأن كل شيء يتم إنشاؤه وتخطيطه من قبل الله، لذلك طور الفن الإسلامي طابعًا فريدًا من أنماط هندسية وأرابيسك ونباتية وكتابية تعكس جوانب توازنها.

ويتميّزُ الفنِّ الإسلاميّ عن غيره من فنونِ الحضارات:

- بكونه يقوم أساساً على عقيدة التوحيد ، كما تتخذ من التصوّرات الشاملة المتعلقة بالإنسان والكون والحياة، وتدحض الوثنيات والخرافات والأوهام.

- يركز على مجال التحسينات في طبيعته ، وهو ذلك الميدان الذي يأتي بعد كل من الضروريات والحاجات. تكتمل الصفة الفنية في الفنون الإسلامية عند صنعها من أجل الجمال، ويصبح الفن فقيراً لمعناه ووظيفته حيث يفتقر للصفة الجماليّة لذاته.

- يعتمد على إظهار الأحاسيس غير المرئية، ونقل ما هو مرئي منها. كراهية تصوير الكائنات الحيّة، إذ يعتبر ذلك غير جائز في الإسلام. تسخير الطبيعة وعناصرها، وإعادة صياغتها، وتركيبها لتحاكي الفنّ الإسلامي بمختلف أشكاله.

2. الأنماط الفنية الإسلامية:

يصور الفن الإسلامي جوهر الأشياء أو معانيها وليس مجرد شكلها المادي، والأنواع الأربعة الأساسية هي الخط، والنماذج النباتية (الأرابيسك)، والأنماط الهندسية، والتمثيل المجازي، يتم الجمع بين كل هذه الأساليب معا لإظهار الإبداع والانسجام. يشمل الفن الإسلامي الفنون البصرية التي تم إنتاجها من القرن السابع فصاعدًا من قِبل كل من المسلمين وغير المسلمين الذين عاشوا داخل بلاد الإسلام و بالتالي، من الصعب جدًا تحديده نظرًا لأنه يمتد إلى حوالي 1400 عام، حيث يغطي العديد من الأراضي والسكان. هذا الفن ليس كذلك لدين معين، أو زمان، أو مكان، أو وسيط واحد.

1. الأنماط الهندسية : تحظى الأنماط الهندسية بشعبية كبيرة في الفن الإسلامي بسبب جودته الرمزية أو التعبيرية، يتم استخدام الأشكال الهندسية في الفن الإسلامي "لتعكس لغة الكون" ويساعد المصلي على التعبير عن الحياة وعظمة الخلق والخالق، يُنظر إلى الهندسة على أنها روحية لأن الدوائر تُستخدم كما تُرى الدوائر على أنها غير منتهية، والنماذج المتكررة تُرى على أنها غير محدودة، والتي ترتبط بحقيقة أن الله غير مُنْتَه.

2. النماذج النباتية: تُستمد النماذج النباتية من التقاليد الحالية للثقافة البيزنطية في شرق البحر المتوسط، حيث اعتمد الفنانون الإسلاميون هذا الشكل من الفن بعد أن استولى المسلمون على الإمبراطورية البيزنطية، ويتم استخدام الأنماط لدمج اهتمامات جديدة وعادة ما تشير الأنماط إلى الجنة. وهناك أنماط معقدة من الزخرفة النباتية، وهي تخلق انطباعًا بالتكرار الذي لا ينتهي، والذي يعتقد البعض أنه انعكاس لطبيعة الله اللانهائية.

3. التمثيل المجازي: يشمل الفن الإسلامي أيضًا جوانب من الثقافة الإسلامية، الفن الأكثر أهمية في الإسلام هو الزخرفة السطحية، في الثقافة الإسلامية، يستخدم الناس هذه الزخارف السطحية لتزيين السيراميك والسجاد ذي الأنماط المعقدة والكتب والمساجد.

4. الخط: يعتبر الخط العربي من أهم أشكال الفن الإسلامي وهو يتمتع بمكانة عالية وهو العنصر الأكثر أهمية والأكثر جوهرية في الفن الإسلامي، الاستخدام الأكثر أهمية للخط هو استخدام القرآن الكريم كشكل من أشكال الزخرفة.

- مواضيع الفن الإسلامي:

هناك عناصر مكررة في الفن الإسلامي،مثل استخدام التصميمات المزخرفة أو الهندسية أو النباتية في تكرار يعرف باسم الأرابيسك،غالبًا ما يتم استخدام الأرابيسك في الفن الإسلامي كرمز لطبيعة الله المتعالية وغير القابلة للتجزئة،ويعتقد بعض العلماء أن الأخطاء في التكرار قد يتم تقديمها عن قصد إظهار التواضع من قبل الفنانين الذين يعتقدون أن الله وحده هو الذي يمكن أن ينتج الكمال.

يركز الفن الإسلامي عادةً وإن لم يكن كليًا على تصوير الأنماط والخط العربي،بدلاً من الشخصيات البشرية أو الحيوانية،لأن الكثير من المسلمين يعتقدون أن تصوير الشكل الإنساني هو عبادة الأصنام وبالتالي فهو خطيئة ضد الله ممنوعة في القرآن.

تشمل العمارة الإسلامية مجموعة واسعة من الأساليب والمثال الرئيسي هو المسجد،تاريخيًا كان المسجد الإسلامي مكانًا للصلاة ومكانًا للاجتماعات المجتمعية،ويعتقد أن المساجد المبكرة كانت مستوحاة من منزل سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام في المدينة،الذي كان أول مسجد. و يعد المسجد الكبير بالقيروان (في تونس) الذي تأسس في عام 670 م أحد أفضل الأمثلة المحفوظة والأكثر أهمية المساجد العظيمة المبكرة، وتحتوي على جميع المعالم المعمارية التي تميز المساجد المبكرة، المئذنة، وساحة فناء كبيرة محاطة بالأروقة ، وقاعة صلاة منقطعة النظير.

الخط العربي الإسلامي أقدم أشكال الخط العربي هي الكتابة بالخط الكوفي، وهي معروفة بشكلها المميز، تتم قراءة اللغة العربية من اليمين إلى اليسار ويتم كتابة الحروف الساكنة فقط، ومع ذلك، فإن تصميم الخط العربي لا يقتصر على كتاب الفن الإسلامي. يوجد الخط في عدة أنواع مختلفة من الفن، مثل الهندسة المعمارية، على سبيل المثال، يضم الجزء الداخلي من قبة الصخرة (القدس) نقوش بالخط العربي آيات من القرآن وكذلك من مصادر إضافية، كما هو الحال في أوروبا في العصور الوسطى، قد يتم تضمين النصائح الدينية مثل الآيات القرآنية في الأشياء العلمانية، وخاصة العملات المعدنية والبلاط والأشغال المعدنية. يحتوي الجزء الداخلي من قبة الصخرة على العديد من النقوش بالخط العربي، من القرآن ومصادر أخرى؛ مما يوضح أهمية الخط العربي في الفن الإسلامي واستخدامه في العديد من الوسائط المختلفة.

3. مدارس الفن الإسلامي

كان شعار الفن الإسلامي " الفن في خدمة الحياة " أي أن الفن هو فن تطبيقي يشترك في كل جوانب الحياة فيزين المنازل بعمارة إسلامية رائعة، ويزخرف الأواني والأثاث وكل ما يستخدمه الإنسان في مختلف أوجه الحياة.

تتميز الفنون الإسلامية بأن هناك وحدة عامة تجمعها بحيث يمكن أن تتميز أي قطعة أنتجت في ظل الحضارة الإسلامية في أي قطر من أقطار العالم الإسلامى، ولعل هذا السر من أسرار تفوق الحضارة الإسلامية وقدرتها الفائقة على صبغ المنتجات الفنية في جميع الأقطار بصبغة واحدة، على أن هذه الوحدة لم تمنع من وجود طرز إسلامية تتميز بها الأقطار الإسلامية المختلفة في عصور تطورها الفنى.

ويمكننا أن نقول بوجه عام: إن الطراز الأموي ساد العالم الإسلامي أولاً متأثرًا بالفنون المحلية، ثم ساد الطراز العباسي منذ قيام الدولة العباسية عام 750م، وعندما ضعفت الخلافة العباسية منذ القرن السابع الميلادي سادت طرز أخرى إقليمية فكان هناك الطراز الأندلسي المغربي في شمال أفريقيا والأندلس، والطراز المصري الشامي في مصر وسوريا، والطراز الإيراني في بلاد فارس والطراز العثماني في الأناضول والبلاد التي كانت تتبعها، ثم الطراز الهندي في بلاد السند ومن واجبنا أن نكون على معرفة بهذه الطرز الفنية، وكيف تميزت بميزات خاصة في إطار الوحدة الفنية الإسلامية الكبرى.

1. الطراز الأموي

كان استيلاء الأمويين على الخلافة سنة 41 هـ/ 661 م وانتقال عاصمة الدولة الإسلامية من المدينة المنورة إلى دمشق خاتمة لعصر الخلفاء الراشدين، الذين غلب عليهم البساطة والزهد وبدأ الأمويون في تشييد مساجد تضاهي فخامة كنائس المسيحيين، ويتخذون تحفًا فنية تتفق وعظمة ملكهم الجديد، وكانت السيادة الفنية في عصرهم للبيزنطيين والسوريين وغيرهم من رجال الفن والصناعة الذين أخذ عنهم العرب الفاتحون، وقام على أكتاف الجميع الطراز الأموي في الفن الإسلامي، ونقل القادة والحكام وأتباعهم أصول هذا الطراز إلى سائر الأقاليم الإسلامية، وثبتت هذه الأصول في الأندلس.

وأهم الأبنية التي تنسب إلى الأمويين قبة الصخرة التي تقع في وسط الحرم الأقصى ببيت المقدس، ثم الجامع الأموي بدمشق وبعض قصور بناها الخلفاء في بادية الشام؛ كقُصَيْر عمرى، وقصر المشتى، وقصر الطوبة.

ولا شك في أننا نشاهد التأثير الذي كان لتصميم الجامع الأموي على تصميم الجوامع التي شيدت في الأمصار الإسلامية المختلفة في ذلك العصر؛ كجامع القيروان، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع قرطبة بالأندلس.

والقصور التي شيدها الخلفاء في بادية الشام أكثرها أبنية مربعة الشكل وسطها حيشان تحيط بها غرف للسُّكنَى، وكان يأوي إليها الأمراء للصيد أو حين تنتشر الأمراض في المدن، وكان الجزء المهم في بعضها حمامًا كما في قُصَيْر عمرى، وكان البعض الآخر يشبه الحصون الصغيرة.

و كانت العناصر الزخرفية لهذا الطراز مزيجًا من جملة عناصر ورثها عن الفنون التي سبقته، فبينما تظهر فيه الدقة في رسم الزخارف النباتية والحيوانية، ومحاولة تمثيل الطبيعة وغير ذلك مما امتازت به الفنون البيزنطية، نجد تأثير الفن الساسانى في الأشكال الدائرية الهندسية وبعض الموضوعات الزخرفية الأخرى كرسم الحيوانين المتقابلين أو المتدابرين تفصلها شجرة الحياة المقدسة أو شجرة الخلد.

2. الطراز العباسي

لما استولت الدولة العباسية على مقاليد الحكم سنة132هـ/ 750م، أصبحت السيادة في العالم الإسلامي للعراق ، وأدى ذلك إلى تغيير كبير في أساليب العمارة والزخرفة، فانتقل البناءون إلى استعمال الآجرِ بدلًا من الحجر، وإلى بناء القوائم بدلًا من اتخاذ الأعمدة، وبدأت التقاليد الفنية الشرقية وغلبت الأساليب الفنية الساسانية على الفنون الإسلامية. ، ففي سنة 146هـ/ 762م، شيَّد الخليفة المنصور مدينة بغداد على نهر دجلة محاولًا بناءها على شكل دائرة في وسطها القصر والجامع، ويحيط بها سور كبير فيه أبراج ويوازيه سور آخر. وفي سنة221هـ/ 836 م،

شيَّد الخليفة المعتصم مدينة سامرا أو سُرَّ مَن رأى على الضفة اليمنى لنهر دجلة، واتخذها عاصمة جديدة للدولة. وقد ذاع صيت سامرا بالقصور العظيمة التي شيدها فيها المعتصم وخلفاؤه .

نقل أحمد بن طولون سنة254هـ/ 868م إلى مصر ما كان في سامراء من أساليب العمارة والزخرفة. ويتجلى ذلك كله في جامع أحمد بن طولون الذي يعتبر في عمارته وزخرفته الجصية مثالًا حيًّا من أمثلة الفن العباسي في القرن التاسع الميلادي.

يتكون جامع بن طولون من صحن مربع مكشوف، وتحيط به أروقة من جوانبه الأربعة، وتقع القبلة في أكبر هذه الأروقة، وهناك ثلاثة أروقة خارجية بين جدران الجامع وبين سوره الخارجي، وتسمى الزيادات، ولعلها بنيت حينما ضاق الجامع عن المصلين، وجامع ابن طولون مشيد بآجر أحمر غامق، وأقواس الأروقة محمولة على دعائم ضخمة من الآجر تكسوها طبقة سميكة من الجص، بدلًا من الأعمدة التي كان المسلمون يأخذونها من الكنائس والمعابد القديمة، ولكن أهم ما يمتاز به هذا الجامع هو مئذنته أو منارته التي تقع في الرواق الخارجي الغربي، فتكاد لا تتصل بسائر بناء الجامع، وهي مبنية بالحجر، وتتكون من قاعدة مربعة تقوم عليها طبقة أسطوانية وعليها طبقة أخرى مثمنة. وأما السلالم فمن الخارج على شكل مدرج حلزوني، وليس لهذه المنارة نظير في الأقطار الإسلامية، اللهم إلا في المسجد الجامع وفي مسجد أبي دلف بسامرا.

وأبنية الجامع الطولوني مغطاة بطبقة سميكة من الجص، وعلى أجزاء كبيرة منها زخارف هندسية جميلة مأخوذة عن الزخارف العراقية في سامراء.

ومما امتاز به العصر العباسي نوع من الخزف ذو بريق معدني lustre ذاع استخدامه في العراق وإيران ومصر والشام وإفريقية والأندلس، وكانت تصنع منه آنية يتخذها الأمراء والأغنياء عوضًا عن أواني الذهب والفضة التي كان استعمالها مكروهًا في الإسلام؛ لما تدل عليه من البذخ والترف المخالفين لتعاليم الدين، كما كانت تصنع منه أيضًا تربيعات تكسى بها الجدران كالتي لا تزال باقية حتى الآن في جامع القيروان.

3. الطراز المغربي الأندلسي

بدأ الطراز المغربي الصحيح في الأندلس ثم أزدهر في المغرب على يد دولة الموحدين، ويلاحظ أن الزعامة الثقافة في العالم الإسلامي المغربي كان مركزها في الأندلس في عصر الدولة الأموية الغربية وفى عصر ملوك الطوائف، ثم انتقلت هذه الزعامة إلى مراكش في نهاية القرن 11م.

ومن مميزات الطراز الأندلسي المغربي استخدام نوع من العقود على هيئة حدوة الفرس، واستخدام الدعائم المبنية من الآجر عوضًا عن الأعمدة، مما يكسب الأبنية هيبة وجلالًا عظيمين.

ومن الظواهر المعمارية التي اختص بها هذا الطراز، وطبعته بطابع خاص يميزه عن سائر الطرز الإسلامية، نذكر المآذن المربعة والطنف أو الأفاريز الخشبية التي كانت تظل البوابات الخمسة. ونلاحظ أن الأعمدة في قصر الحمراء وفي العمائر التي تأثرت بهذا القصر قد امتازت برشاقتها وجمالها وتيجانها ذات الدلايات أو المقرنصات، كما أن استخدام الفسيفساء من الخزف في تغطية الجدران، والإسراف في الزخارف المحفورة على الجص ظاهرتان قويتان في الطراز الإسباني المغربي.

كانت كل الظواهر المعمارية المذكورة تتجلى في العمارة الاندلسية المغربية، ولا سيما المساجد والأضرحة، وفي القصور التي يرجع أقدم الباقي منها وهو قصر الحمراء (القرن 14م) ، كما امتاز هذا الطراز بكثرة أبنية المدارس، أدخلها سلاطين الموحدين في إسبانيا والمغرب. وذاع صيت مدينة فاس بكثرة المدارس التي كانت تشتمل غالبًا على عدة غرف للطلاب، وعلى قاعة كبيرة للدرس كانت تستخدم للنوم أيضًا، وكان بناء المدرسة من طابقين، وفي وسطه صحن مكشوف، ولم يكن هناك قسم في البناء لأتباع كل مذهب من المذاهب الأربعة؛ لأن هذه المدارس كانت كلها للمذهب المالكي.

4. المدرسة المصرية الشامية

كان الفن بمصر في العصر الطولوني (868 -905م) تابعًا للأساليب الفنية العباسية، ولما دخل الفاطميون مصر سنة 969م ، ثم استولوا على جزء كبير من الشام، نشأ على يدهم الطراز المصري السوري، وتطور بعد ذلك على يد المماليك (1250 -1517م) تطورًا بعيد المدى، حتى ليمكننا أن ننسب إلى الفاطميين طرازًا خاصًّا، وإلى المماليك طرازًا آخر، ولكننا لسنا في معرض تفصيل المميزات الدقيقة في كل منهما، فلا بأس من أن نعتبرهما هنا طرازًا واحدًا، وأن ننظر في مميزاتهما على وجه عام.

وقد كان الطراز المصري السوري أكثر اعتدالًا واقتصادًا في الزخرفة من سائر الطرز الإسلامية، ولا سيما الطراز الإسباني المغربي.

وقد تأثر الفاطميون بالأساليب الفنية الفارسية بعض التأثير، فكثر رسم الإنسان والحيوان على التحف التي ترجع إلى عصرهم، وفي دار الآثار العربية ألواح خشبية كانت في أحد قصورهم، وعليها زخارف محفورة تمثل مناظر صيد وطرب وموسيقى وسفر، وغير ذلك من صور الحياة اليومية ، كما نجد كثيرًا من صور الحيوانات على الخزف ذي البريق المعدني، التي تعتبر صناعته من مفاخر العصر الفاطمي، وعلى قطع النسيج الفاخر التي كان لها تأثير كبير في صناعة النسيج في صقلية وفي إسبانيا.

وقد بقي من عمائر العصر الفاطمي الجامع الأزهر، ومن الظواهر المعمارية التي يمتاز بها العقود الفارسية الطراز، وهي مبنية من الآجر، وعليها طبقة من الجص غنية بزخارفها النباتية والخطية، ومن أبنيتهم أيضًا جامع الحاكم، ويمتاز بمنارته ذات القواعد الحجرية، والجامع الأقمر الذي يمتاز بواجهته ذات الزخارف الجميلة، وفي العصر الفاطمي استخدمت القباب فوق الأضرحة التي شيدت لبعض أولاد الإمام علي. وقد كانت القباب قبل ذلك تبنى فوق جزء من أبواب المحراب في المسجد، وصفوة القول أن الفن في العصر الفاطمي كان زاهرًا وكانت قصور الفاطميين عامرة بالتحف الفنية التي أقبلوا على جمعها، وأفاض في وصفها المؤرخون والرحال.[٣]

أما عصر الدولة الأيوبية (1171-1250م) فقد امتاز بالعمائر الحربية ولا سيما القلعة، كما امتاز بالمدارس الكثيرة التي شيدها الأيوبيون لتدريس المذاهب الأربعة، ومحاربة العقيدة الشيعية؛ ولذلك كانت هذه المدارس صليبية الشكل، ولكل مذهب فيها رواق. ومن الظواهر المعمارية في العصر الأيوبي القباب الجميلة المحلاة زواياها بالمقرنصات كقبة الإمام الشافعي. أما في الزخرفة فقد انصرف الفنانون عن

رسوم الإنسان والحيوان، وأبدعوا في الزخارف النباتية والهندسية، على أن عصر المماليك في مصر هو الذي جعل القاهرة متحفًا عظيمًا، تتيه بما فيها من مساجد وقصور تتجلى فيها عظمة الطراز المصري السوري، ولا يحد إعجاب المشاهد ما فيها من زخارف دقيقة، وفسيفساء بديعة، ورخام متنوع الألوان، وشرفات مسننة، وأبواب ضخمة، ومآذن رشيقة، وقباب منمقة وحسنة النسب. ومن أشهر هذه العمائر جامع الظاهر بيبرس، وجامع قلاوون، وجامع الناصر بالقلعة، وجامع السلطان حسن، وهو أحسن مثال للمدارس ذات الأربعة الأروقة، فضلًا عن أنه جمع بين الضخامة ودقة الزخارف، ثم جامع المؤيد، ويمتاز بمحرابه وبمنبره وبجدرانه المكسوة بالفسيفساء الجميلة.

ومن التحف النفيسة التي امتاز بها الطراز المصري السوري المشكاوات المصنوعة من الزجاج المموه بالمينا التي كانت تزدان بها مساجد القاهرة ، وتفخر دار الآثار العربية بامتلاك أكبر عدد منها في العصر الحاضر، كذلك تقدمت صناعة الخزف في عصر المماليك تقدمًا كبيرًا، وأتقن الفنانون المسلمون في مصر الزخارف النباتية والهندسية على الأحجار والأخشاب والأقمشة والمعادن.

5. الطراز الإيراني

كانت إيران منذ الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري (7م)، في طليعة الأمم الإسلامية عناية بصناعة التحف النفيسة. وعندما أتيح للسلاجقة في القرن 5 هـ (11م) أن يستقروا في إيران، ظهر طراز سلجوقي، امتاز بالإقبال على استخدام الكائنات النسخية المستديرة ، فضلا عن الكتاب الكوفية التي كانت تجمل بالفروع النباتية. وينسب إلى العصر السلجوقي، أولى مدارس التصوير في الإسلام، وأصبحت خراسان ومدينة هراة مراكز ممتازة لإنتاج التحف والأواني من النحاس والبرونز المكفت بالفضة والمزدانة بأشرطة من الزخارف الكتابية، وقد شاع في العصر السلجوقي، استخدام بلاطات الخزف في تغطية الجداران.

امتازت إيران في الفنون الإسلامية بالمحافظة على قسط وافر من أساليبها الفنية القديمة، ومن ميل إلى رسوم الكائنات الحية والزخارف النباتية الرشيقة، ومن ثم يمكن اعتبار هذا العصر من الناحية الفنية أقوى العصور في إيران على الإطلاق.

وذاع صيت إيران في إنتاج المصاحف الفنية الفاخرة، وتذهيب صفحاتها الأولى والأخيرة، فضلا عن رؤوس السور وعلامات الأحزاب، وقد نجح المذهبون في دقة مزج الألوان، وإتقان الرسوم الهندسية والفروع النباتية اتقانًا يبدو فيه التوازن والتماثل، وقد كان لازدهار فن النقش والتصوير صداه في سائر ميادين الطراز الصفوى، فامتد نفوذ المصورين إلى رسوم السجاد والمنسوجات والخزف في القرن 10-11هـ (16-17م)، فأصبحنا نرى السجاجيد الثمينة، ذات الألوان الفنية والرسوم المختلفة، التي تشبه رسوم المخطوطات. كما ظهرت أنواع من الخزف ذي البريق المعدني، أما التحف المعدنية في الطراز الصفوي، فقد غلبت عليها رسوم الفروع النباتية والصور الآدمية والحيوانية.

6. الطراز التركي

سقط السلاجقة في القرن 8هـ/ 14م، وآل الحكم في آسيا الصغرى إلى آل عثمان الذين استطاعوا الاستيلاء على القسطنطينية سنة 857هـ /1453م، ولعل خير ما أنتج الترك من أنواع الفنون تظهر واضحة فيما خلفوه من تحف الخزف والقيشانى والسجاد

والأقمشة الحريرية والقطيفة والمخطوطات.

أما الخزف التركي فيمتاز بألوانه الجميلة وما فيه من رسوم الزهور والنباتات، أما السجاجيد التركية فهي تعد بحق من أبدع الفنون الشرقية، والتي تمتاز بالزخارف الهندسية البحتة، وسجاجيد الصلاة الصغيرة النفيسة ويمتاز معظمها برسم محراب في أرض السجادة.

7. الطراز الهندي

يعتبر الطراز الهندي أقرب الطرز إلى الفن الفارسي، وقد تبلورت شخصية الطراز الهندي اعتبارا من القرن السادس عشر، وأصبح له طابع مميز وظواهر معمارية خاصة، أما التصوير فقد امتاز بهدوء الألوان والقرب من الطبيعة ورسم الصور الشخصية، وتمتاز العمائر الهندية باستخدام العقود الفارسية، والمآذن الأسطوانية، والقباب البصلية، والزخارف الدقيقة.

وهكذا وعلى مر كل تلك العصور نجد أن الفن الإسلامي كان يتميز دائمًا بأنه فن يخدم الحياة في كل أساليبه وطرقه، وأنه خلق لأجل متعة الإنسان المسلم، ولأجل تذوقه للقيم الجمالية أينما كان، ولهذا ظلت الفنون الإسلامية باقية معنا حتى يومنا هذا نستخدمها في حياتنا ونتمتع بما بقي من آثارها السابقة من عمائر وتحف وأوانٍ ذات قيم جمالية وفنية عالية

4. الحرف والصنائع

استطاع الإسلام بمنهجه أن يجعل من كل صانع فنانًا في صنعته يبذل في تحسينها كل مهاراته العملية مشفوعة بفكره وإبداعه وبهذا كان الجمال لغة متداولة يتعامل بها كل الناس وليس طبقة واحدة، وأصبح كل صانع يشعر بلذة الإبداع الفني كما يشعر بها أي فنان مبدع. ومن هذا الشعور الرفيع كان ذلك العطاء العظيم الذي نتحدث عن بعض جوانبه.

ونظرا لإبداع الصانع المسلم في حرفته صارت تُعرف بالفنون التطبيقية بأنها الفنون التي دخلت بوصفها عملية تجميلية لحوائج مرتبطة بحياة الإنسان اليومية كالخزف والزجاج والنسيج والسجاد والزخرفة الخشبية، وهي مما يستعمله الإنسان في شتى أموره، من لباس وفرش وأدوات مأكل ومشرب ، وصناديق لحفظ الحاجيات ، وهذا النوع من الفنون يعد في مقدمة أنواع الفن الإسلامي، فهو أساس في تجميل كل ما له صلة بالإنسان من متاع، مما أمّن له انتشارًا واسعًا بين الناس، واتصالًا وثيقًا بدنيا الناس، فلا يظل قاصرًا على طبقة معينة أو فئة محدودة.

وتُعدّ هذه الفنون فنون تطبيقية لنظرة الإسلام الجمالية الشاملة التي جاء بها المنهج الإسلامي ودعا إليها. ويمكن تفصيل الحديث عن أنواع فنون الحرف والصنائع بما يأتي:

1- الخزف

تعدّ المصنوعات الخزفية أبرز أنواع الفن الإسلامي و في مقدمة التحف الفنية المتوفرة بين الأيدي في الوقت الحاضر، فهي كثيرة العدد، متنوعة المواضيع، لا يكاد يخلو منها بلد إسلامي.
" الخزف طين مشوي بأشكال مصبوبة، أو مُشكَّلة مغطاة بدهان براق أزرق وأخضر، أو بدهان ذي بريق معدني بإضافة أملاح الحديد والأنتيموان إليه". وكان مما عمل على انتشار هذا الفن، عامل "الالتزام": فقد حرّم الإسلام استعمال أواني الذهب والفضّة، وكذلك ما طلي بهما، ولذا كان هذا الاتجاه تحقيقًا لهذا المعنى، وكان الخزافون المسلمون هم أول من اخترع البريق المعدني في زخرفة الخزف. ويعتقد أن ابتكاره تم في العراق، ولكنه نضج وأصبح لونه ذهبيًا منذ القرن 3هـ ، ومن المراكز التي اشتهرت بصنع الخزف "قاشان" وإليها تنسب صناعة بلاط القاشاني، وسامراء والموصل والرُصافة في العراق والرقّة في سوريا، والفُسطاط في مصر، ومالقة في الأندلس.

2- الزجاج

صناعة الزجاج أحد أنواع الفن الإسلامي، وهي صناعة قديمة في سوريا ومصر، وهناك قطع ترجع في تاريخها إلى القرن 3هـ ، وقد بلغت صناعة الزجاج قمتها في مصر وسوريا في القرن 6هـ، وكان من مراكز النشاط فيها حلب ودمشق والفسطاط والإسكندرية. وقد أخذت الزخرفة والحفر مكانها بالنسبة للزجاج، شأنها في ذلك شأن بقية المصنوعات، واستعمل الطلاء بالمينا من حمراء وزرقاء وخضراء.

3- الزخرفة على الخشب

كانت مادة الخشب ميدانًا لعمليات تجميلية متنوعة، سادت في كثير من البلدان الإسلامية، وكان الحفر على الخشب إحدى هذه الأساليب التجميلية، كما استعملت الحشوات للحصول على أشكال هندسية متنوعة في مقدمتها المضلعات المنبثقة من أشكال نجمية، وكثيرًا ما كان الخشب يطعم بالعاج وغيره. وقد استعملت الحشوات في الأبواب والمنابر، واستعمل الحفر والتفريغ في التحف، كما استعمل التطعيم في الصناديق وبعض الأبواب والكراسي.

4- النسيج والسجاد

ارتبط النسيج بحاجة الناس العامة له، فكثرت مصانعه والعاملون فيه تلبية لتلك الحاجات، حتى برز كنوع من أنواع الفن الإسلامي، وخُصّ بعناية الفنانين والنسّاجين، فقد أنشأت بعض الدول المسلمة دورًا خاصة تشرف عليها الدولة، مهمتها إنتاج الملابس لبيت الخلافة، وقد أطلق على هذه الدور اسم دور الطراز، وقد خصص ابن خلدون في مقدمته فصلًا تحت هذا العنوان بينَّ فيه مهمة هذه الدار وقرب المسؤول عنها من الخليفة، كما بينَّ أن وجودها ارتبط بعهود الرفاهية. وقد اشتهرت بعض المدن في إنتاج أنواع معينة من المنتوجات، فعرفت دمشق بصناعة النسيج الحريري السميك المعروف بالدامسكو أو الدمقس، واشتهرت بغداد والموصل بنسيج حريري ناعم عُرف بالموصلين، وتعددت مدن صناعة النسيج بمصر، وفيها كانت تصنع كسوة الكعبة وتطرز. وكان لكل بلد أسلوبها في الزخارف التي أدخلتها على نسيجها، ففي إيران انتشرت الزخرفة بالزهور والفروع النباتية، وكذلك في تركيا. كما أدخل الخط كعنصر تزييني في بعض ما أنتجته دمشق ومصر، وغالب هذه الكتابة عبارة عن جمل دعائية مثل: سعادة دائمة.

من أقدم ما وصل إلينا من النسيج الإسلامي" قطعة من النسيج من موجودات المتحف الإسلامي بالقاهرة، مصنوعة من الكتان، وعليها نص تاريخي يقول" بسم الله، بركة من الله لعبد الله الأمين أمير المؤمنين أطال الله بقاه مما أمر بصنعه في طراز العامة بمصر على يد الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين

أما صناعة السجاد فقد انتشرت في أماكن متعددة من العالم الإسلامي مثل تركيا وسوريا ومصر، وتعتبر إيران بلدًا لا يُجارى في هذه الصناعة، التي وصلت إلى ذروتها في القرن 10هـ؛ حيث أنتجت أنماطًا لا تضاهيها أنماط أخرى في جمالها وسحرها، وقد كانت أصفهان، وتبريز، وشيراز، وقاشان، وهمدان، أهم المدن في إنتاج هذه الصناعة.

5- فنون الكتاب

بدأت فنون القرآن بفن الخط، ثم تبعته عملية تجميلية لكتابة القرآن، وعرفت كنوع من أنواع الفن الإسلامي، وهي التذهيب، ثم تلوين الفواصل بين السور والآيات، ثم إضافة الرسوم والأشكال إلى موضوعات الكتاب، ثم جاءت عملية التجليد كنوع ختامي من أنواع الفن الإسلامي الخاص بالقرآن الكريم، وكعملية ختامية لإعطاء الكتاب شكله النهائي، حيث يُسعى إلى الجمال والمتانة، وكان الجلد هو المادة المستعملة في التجليد ثم استعمل الورق المقوى وغيره. وقد أتيح للزينة أن تأخذ مكانها على هذا الجلد، فبذل الفنان قصارى جهده في إخراجه بالشكل الذي يجذب البصر ويستهوي الإعجاب.

6- الزخرفة بالمعادن

تعتبر التحف المعدنية التي يرجع تاريخها إلى العصور الإسلامية الأولى حلقة وصل بين الطراز الساساني والطراز الإسلامي.
ولقد اشتهرت مدن كثيرة من بين المدن الإسلامية على مر العصور بمصنوعاتها المعدنية، من مختلف المواد التي توفرت بها ، كما تنوعت بها طرق الصناعة ،وأساليب الزخرفة، وكان الذهب ،والفضة ،والنحاس الأحمر؛ أهم المعادن استخداما في الفنون الإسلامية.
ولقد اشتهرت صناعات يدوية في عصور الدول الإسلامية الأولى، كالثريات، وصناديق للمصاحف، وشمعدانات ؛ من آثار استعملت فيه مختلف الأساليب الفنية من زخرفة المعادن ،ومن تكفيت بالفضة والذهب ،وتصفيح ،وحفر، وتثقيب "تخريم" ،ومن هذه المصنوعات ما قصد به الاستعمال المنزلي مثل الصواني، والأباريق ،والطسوت، والمباخر.
إهتم الفاطميون بفن تشكيل المعادن من أدوات معدنية ،وحلى ذهبية ،وفضية متنوعة ، بل لقد وصل إلينا شيء من هذه التحف ،من ذلك مشبك من الذهب ،عثر عليه في أطلال الفسطاط ،عليه كتابة كوفية نصها (فالله خير حافظا)، وهناك قطع أخرى مصنوعة بمشبكات دقيقة من الأسلاك في هيئة وريقات شجر، ومن أهم الموجودات طست نحاس مكفت بالفضة باسم السلطان نجم الدين أيوب، وعليه رسوم تمثل لعبة الكرة والصولجان، وهو موجود بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة اليوم.
أيضا يوجد عدد من الأباريق النحاسية المكفتة بالفضة، والغنية بزخارفها البديعة، ومن أجمل التحف المعدنية : مبخرة تحمل كتابة باسم السلطان العادل الثاني موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق..
وقد تميز العصر المملوكي بكثرة الكتابات العربية على المعادن والأواني وذلك بأغلب أنواع الخط من كوفي، ونسخ، وزخرفي ، وخط الثلث وغيره.

المراجع المعتمدة:

1. الفن الإسلامي عفيف بهنسي،دار طلاس للنشر دمشق ط.2 1998.
2. جمالية الفن العربي. د. عفيف بهنسي سلسلة عالم المعرفة،الكويت، كتاب – 14، فبراير 1979
3. الفن الإسلامي. أبو صالح الألفي بيروت (لبنان):دار المعارف 1984
4. تاريخ الفن عند العرب والمسلمين. أنور الرفاعي دار الفكر-دمشق/دار الفكر المعاصر-بيروت ،ط.2 ، 1977
5. تراث الإسلام ، إشراف (توماس ارنولد) ترجمة جرجيس فتح الله. المطبعة العصرية بالموصل 1954 ج 2.
6. الفنون الاسلامية ،م.س.ديماند،ترجمة أحمد محمد عيسى،دار المعارف القاهرة،ط.3 1982.